محمد على عامر

واليه حتطلع فى العالى
والنصر لينا طوالى
والاستعمار سبب فقرى ودموعى
عايش على عرقى وجوعى
محمد على عامر
من أحد المواويل التى كان يرتلها فى السجن

عندما يحدثك محمد على عامر عن الفقر الذى كان يعيشه لا يمكنك أن تصدق أن بشرا كانوا يعيشون فى هذه الحالة، كل هذا الفقر لا يمكن تخيله، ولا يمكن تصور أنه موجود، لكنه كاف تماما أو حتى قليل منه لأن تتفهم هذا الحماس والغيظ والكراهية التى تغمر كل تصرفاته ضد الاستعمار والإقطاع وكل الأغنياء، ويروى محمد عامر فى حوارى معه.. ضحك طويلا ثم قال «انت عارف أنا عصبى قوى ليه أصل أمى من أصل بدوى، أمها ماتت وهى بتولدها وأبوها مات بعد يومين، خدو البنت وإدوها لعمها وكان أفقر من الفقر، واحتاس العم يرضع البنت إزاى، فتوسل لجارة كى ترضع من لبن حمارته وبعد فترة توسل لجار قرداتى كى ترضع من القردة، ونشأت أمى قوية عفية طويلة اليد وطويلة اللسان وكان الجيران يخافون منها ويسمونها العفريتة ويتندرون بأنها رضعت لبن الحمير ولبن القرود.

وعندما كبرت كانت أمى تحرضنى «أى حد يلمسك أو يشتمك اضربه فورا بشدة وعنف وشراسة علشان الناس كلها تخاف منك».. والحقيقة أنا أخدت من أخلاق أمى كثيرا، أما أبويا فكان أجيرا فقيرا فى عزبة باشا فى الشرقية، زوجة الباشا عاقر أعجبها الطفل محمد ساومه الباشا على أن يشترى منه الطفل فرفض، علقوه على شجرة وظل الباشا يضربه حتى تعب فسلم الكرباج للخولى وأمره أن يواصل الضرب ليلا ونهارا.

الخولى صعب عليه الراجل ونزله من على الشجرة، وهرب الرجل وزوجته وابنه إلى حى المطرية، ويعيش حياة الفقراء، كان بجوارهم معسكر لحرس الحدود والحرس يستخدم الجمال، وآمه وجاراتهم يذهبن ليجمعن روث الجمال.. يغسلنه فيجدن بقايا ذرة رفيعة تستخدم لإطعام الجمال، هذه البقايا تجفف وتطحن فى الرحاية لتكون خبزا»، فى ظل هذا النوع من الفقر عاش محمد، ترك الكتاب واشتغل فى أى شغلانة، شيال - صبى - جزار - عامل فى مسبك ثم عامل نسيج، ووفقا لوصية الأم فرض الفتى محمد سطوته على أطفال الجيران وعلى زملائه فى العمل.

ويمضى فى حواره «أصبحت وفديا، وانضممت إلى القمصان الزرقاء وتفوقت على لجميع فى عنفى ضد الخصوم وبعد فترة تحولت للعمل النقابى ومع نهاية الحرب العالمية الثانية أصحبت قائدا نقابيا ونجحت فى تأسيس نقابة «عمال النسيج الميكانيكى وملحقاته» وأصبحت رئيسا لها، وبعد فترة التقيت صحفيا فى جريدة البلاغ اسمه أنور كامل وانبهرت بأسلوبه ومعلوماته وواصلت جتماعاتى معه وأحضرت له عديدا من العمال، وبعد فترة بدأ أنور كامل وزميل له اسمه لطف الله سليمان فى الهجوم خلال المحاضرات على الاتحاد السوفيتى، لكننى كنت معجبا بستالين وبالجيوش السوفيتية التى هزمت هتلر، وسألتهم لماذا تهاجمون روسيا ولا تهاجمون أمريكا والاستعمار فقال لا نهاجم الأمريكان لأنهم مكشوفين ولم يعجبنى الرد وطردتهم من الاجتماع وأقسمت لهم لو حد فيكم جه الزيتون أو عرب الحصن حأدفنه هنا» وواصل محمد عامر نضاله النقابى ليصبح واحدا من القادة المرموقين فى نضال عمال النسيج ويعتقل عام ١٩٤٨ ليرحل إلى الطور وهناك التقى الشيوعيين الذين تعاملوا معه بحذر شديد باعتباره تروتسكيا ويقول «لم أكن أعرف عن التروتسكية أى شىء سوى أنها ضد الاتحاد السوفيتى، لكننى تعاملت مع الجميع بشراسة فقد بادرونى بالعداء ورددت عليهم بعداء أشد» وخرج محمد عامر من الطور إلى نقابته ونمضى فى الحوار معه «فى عام ١٩٥٠ دخل النقابة شاب سودانى يحمل نداء استكهولم للسلام ويطلب التوقيع عليه، صرخت فيه إزاى سلام مع الاستعمار فشرح الأمر بهدوء وتحدث عن الاستعمار كسبب فى الحروب، كلماته دخلت قلبى وقررت أن أوقع وأمسكت بموس علشان أبرى القلم لأ أوقع فجرحت صابعى وصرخت فى العمال الحاضرين أنا أوقع بدمى، وتدافع العمال ليوقعوا معى وكتبوا أوراقا بخط اليد ليكملوا التوقيعات وعندما رأى يوسف حلمى سكرتير اللجنة التحضيرية لأنصار السلام توقيعى كرئيس نقابة طلب مقابلتى وضمنى للجنة التحضيرية، وعندما حاول البعض من اليساريين إقناعى بأن منظمة «حدتو» تخرب العمل اليسارى عن طريق تأسيس حركة السلام ذهبت إلى شيوعى قديم عنده

مصنع طباشير بعزبة المبيض اسمه محمد محمود ووجدته يستمع إلى راديو موسكو وفيه إشادة بحركة السلام المصرية فصرخت ستالين مع حركة السلام وأنا معها، ثم صرت عضوا فى حدتو عنادا مع خصومها، واتخذت اسما حركيا هو «عاصف»، وبعد فترة أصبحت عضوا بالمجلس العالمى للسلام وعضوا فى اللجنة المركزية لحدتو».

ومن سجن إلى سجن تنقل محمد على عامر، وترك طفله كمال، ولكن من أين يأكل كمال وأم كمال؟ «أم كمال ست جدعة وقفت فى الشارع تقلى طعمية وتعمل سندوتشات، وتنتهى فترة السجن ويخرج الفارس إلى عرينه فى الزيتون، لكن البعض يلاحقه بفكرة حل الحزب ويرفض، ويصرخ فى الاجتماع «لكم دينكم ولى دين» ويبدأ فى تأسيس الحزب من جديد، خلايا جديدة وعمال جدد، ختى يلحق به آخرون ويؤسسون الحزب ويكون عضوا فى المكتب السياسى.

لكن لمحمد عامر وجه آخر هو مواويله، ويقول «كنت أغنى فى السجن مواويل أنسجها بنفسى، قالوا لى صوتك وحش قلت عارف بس حلاق القرية بيعالج الناس لأن مفيش دكتور وفى السجن الناس محتاجة حماس وأنا باحمسها بصوتى الوحش»، ويضحك وهو يسمعنى موالا سمعته منه مئات المرات ونحن فى السجن..

أصل الحكاية كانت أحلام فى أمريكا
سبب البلاوى وأس الظلم فى العالم
ترومان ومارشال وكام دجال فى أمريكا
عاملين عصابات لرعب الناس فى العالم
وتأخذه الجلالة ويتربع على الكرسى ليواصل الغناء بموال جديد
انزل يا طير والدار خالى
ولدى يا ولدى وأنا باغنى وبالآلى
واليه حتطلع فى العالى
والنصر لينا طوالى
الاستعمار سبب فقرى ودموعى
عايش على عرقى وجوعى
ح أموت وأعيش وأنا شيوعى
وقد كان.